

من هنا يبدأ الغد

لم يكن هناك زمن. لا شروق ولا غروب، ولا ساعة رملية تنفذ. فقط زرقة معلقة، كسقف في غرفة نسيها الزمن. رائحة ملوحة مختلطة بصوت بعيد، كأن أحداً كان يبكي تحت الماء. كان المكان يشبه بداية الخلق، أو نهايته. على الضفة المجهولة، تهاوت ببطء حجارة قديمة كأنها تتنفس، وأغصان زيتون يابسة نبتت فوق حطام قارب خشبي. من بعيد، كانت تظهر أطراف مدن منهكة، بيروت بلهبها، وصفاقس بثقلها. غزة بصوتها المكبوت، وأثينا بجراحها.

صوتٌ خافت بدأ يتسرّب، كأن شيئاً ما يستعد للبوخ بعد قرون من الصمت. ارتجف الماء، وفاحت رائحة الذكرى. كان في الصوت شيء من الحنين وشيء من العتاب وشيء من الغضب. كان البحر يُعْتي، أو يحاكم، أو يتوسل: "لقد شاهدتكم جميعاً." هكذا قال، بصوت عميق ومُهْدَج كالصخور اليابسة: "حملت فوق الأمواج سفنكم، ودفنت منكم من لم يعد. شهدت وعودكم وهي تغرق، واحدة بعد الأخرى. أبحرتم فوقها بأشعة من حنين، وشوق، وأمل. تركتكم تبنون المدن، وتحرقونها، ثم تبكون على رمادها."

تهتّر الحجارة على الشاطئ كأنها تخشى أن تتذكّر. كان كل شيء جامداً، إلا الذاكرة. تحرك شيء تحت سطح الماء، ككائن حيّ يمد أطرافه الباردة على مهل، ويقول: "أنا الذي مشى على صدري الفينيقيون، والإغريق، والحلمون من كل الجهات. كنت مرآة المدن قبل أن تعرف الأسماء، كنت لحن القصيدة قبل أن تعرف اللغة. حملت أسواق قرطاج، وأشعة غرناطة، وسفناً محملة بالخوف والأمل، تذهب ولا تعود. أخاطب من يحملون الغد في صدورهم. تذكروا أنكم ولدت من حضاراتٍ كانت تحلم، وتتكلم، وتكتب عن الحب في رسائلها. حضارات لم تكن تخاف من الكلمة، ولم تكن تخلط بين الحرية والفوضى. متى أصبح الوطن مجرد محطة للرحيل؟ وهل تُبنى الأوطان من الصمت؟ لماذا أراكم اليوم تفرّون بلا وجهة؟"

ردّد بصوت يغلبه العتاب: "أيها التائهون بين شاشة وحدود، والجالسون على مقاعد النسيان، إنّ الحلم لا يُستعار، بل يُكتب حين تدركون أنكم الورقة الأولى في كتاب المستقبل."

خيم الصمت فجأة، وظهرت ملامح جزيرة غريبة في قلب المتوسط. بها أربعة شباب من مختلف الجهات. لم تكن جزيرة تُرى على الخرائط، ولا تُذكر في سجلات البحارة. كانت في نقطة التقاء لم يُحدها الجغرافيون، حيث تصطدم الرياح الأتية من طنجة بأنين الشام، وتتقاطع الملوحة القادمة من صقلية بحرارة مرفأى يافا. في منتصف الجزيرة، ساعة رملية مقلوبة. وعند الشاطئ زجاجة عتيقة متشققة الحواف تتدحرج بهدوء وتقترب من الصخر. تحركت فجأة رياح الجزيرة لتوقظ النائمين.

ليلي كانت أول من فتحت عينيها. ماء مالح على شفتيها، وورق رطب في يدها اليسرى. شعرها الأسود مسحوب إلى الخلف، وعيناها عسليتان واسعتان كنافذتين تطلان على بيروت. نهضت ببطء، ومشّت خطواتها الأولى وهي تتأمل الجزيرة كأنها تحاول أن تتذكر شيئاً لم تعشه بعد.

يلبها آدم، فتح عينيه على صوت البحر. كفه اليمنى ملطخة بالبحر، ووجهه ساكن كأزقة غزة بعد المطر. يقف، ويحدّق في الرمل طويلاً، كأنه يرى فيه خريطة لا يعرف كيف يقرأها بعد.

على الجانب الآخر، كيرا تنهض دون ضجيج. عيناها زرقاوان كالماء العذب، وفيهما لمعة من الضوء اليوناني. فيهما شيء من أثينا، وشيء من صمت المعابد. تنظر إلى الزجاجة التي انحسرت بين الحجارة وتتأملها دون أن تلمسها.

ياسين كان الأخير. ملامحه تونسية، والحلم في قلبه يطال كلّ الأوطان. نهض دفعة واحدة، نظر إلى الثلاثة، ثم إلى السماء، ثم إلى الساعة الرملية في منتصف الجزيرة. لم يقل شيئاً. أخذ نفساً عميقاً، وبدأ بالمشي نحو الظل الوحيد في المكان.

كانوا أربعة، يجمعهم مكان لا يعرفونه. وقفوا في منتصف الجزيرة حيث كانت الأرض أكثر انبساطاً. تقدّم آدم منحني الرأس قليلاً، عيناها تنتقلان ببطء بين الصخور والوجوه، وكأنه يحاول أن يتعرّف إلى المكان من خلالهم. أما ياسين، فبقي واقفاً جانباً لبضع لحظات، ثم اقترب منهم بخطوتين واضحتين، ووضع يده على حجر منخفض إلى جواره، وكسر الصمت قائلاً: "هل تعرفون هذا المكان؟"

كيرا لم ترفع رأسها، كانت تراقب تساقط الرمل في الساعة بتركيز، ثم قالت: "من الواضح أن هناك وقتًا محدودًا، وإن لم يكن هناك هدف، لما كانت هذه الساعة هنا."

قال آدم بنبرة متحفظة: "ربما ليس علينا أن نستعجل الاستنتاج. أظن أن هذا المكان أكبر من أن نفهمه بسرعة."

ليلى نظرت إلى الورقة التي في يدها، ثم رفعت عينيها إليهم وقالت بهدوء: "حتى وإن لم نفهم السبب بعد، وجدنا هنا ليس عبثًا. أشعر أن هناك رابطًا بيننا، حتى لو لم نره بعد."

ابتسم ياسين بسخرية خفيفة وقال: "إحساس؟ أنا لا أرفض الفكرة، لكن هل يمكننا أن نبنى خطواتنا على مجرد شعور؟ البحر ممتد من حولنا، ولا مخرج واضح. إذا لم نفعل شيئًا، سنظل محاصرين."

قالت كيرا، وهي تعقد ذراعها: "ما الذي تريد فعله بالضبط؟ نحن لا نملك معلومات، ولا خريطة، ولا دليل. كل ما نعرفه أننا غرباء اجتمعنا في مكان مجهول."

ردّ آدم فجأة، دون أن يغيّر نبرته: "وهذا وحده كافٍ ليفصلنا. في بلداننا لم نتفق، ولم نتجاوز خلافاتنا، فكيف لنا أن نفعل هنا؟" سادت لحظة صمت، بدت فيها العيون مشدودة، والقلوب متحفظة. قالت ليلى، وقد بدا صوتها أكثر حزمًا: "لكننا هنا، ولا أحد اختار من يكون الآخر. ربما هذا هو الامتحان الحقيقي، أن نجتمع دون أن نحمل ماضيًا معنا كقيد."

قال ياسين وهو ينظر نحو البحر: "ربما، لكن لا جدوى من الوقوف هكذا. لنفترق قليلًا، ونبحث عن أي دليل أو علامة أو مخرج." فهزّ آدم رأسه موافقًا. نظرت كيرا إليهم جميعًا، ثم قالت بنبرة هادئة: "لا بأس، لكن لا نتبعد كثيرًا." تفرّقوا بهدوء، واتجه كل منهم إلى جهة مختلفة من الجزيرة، واستمرت الساعة الرملية في النزيف ببطء.

كانت الشمس في كبد السماء، والجزيرة تمتد أمامهم كصفحة لم تُكتب بعد. ساروا في أربعة اتجاهات مختلفة، يبحث كل منهم عن شيء لا يعرفه. ليلى سارت بمحاذاة جدار حجري متآكل، تنبت من شقوقه نباتات صغيرة تشبه تلك التي كانت تراها على أطراف أزقة بيروت. لم تكن تخاف من الصمت، بل من امتلائه بما لم يُقَل. توقفت أمام نقش حجري قديم، نصفه محو، ونصفه الآخر يشبه جملة بدأتها ذات مرة في دفتر شعر، ولم تكملها. وضعت يدها على الحجر، وأغمضت عينيها. تذكرت المرة الأولى التي وقفت فيها على منبر مدرسي، ولم يخرج صوتها. بيروت التي تُحبّها بالكلمات، وتخافها بالصوت. كانت تحلم أن تُنشئ مكانًا لا يخاف فيه الناس من أن يُنصتوا لبعضهم. أن تعود الحروف إلى الشوارع، وإلى البيوت. مدت يدها إلى الورقة التي تحملها، وقرأت منها بصوت مرتجف: "أنا الوطن الذي يسكنكم، فانطقوا بي كي لا أموت."

آدم اتجه نحو الساحل، حيث البحر يُقابل الرمل. جلس على صخرة ناعمة، وسحب كفه عبر الماء. نظر إلى وجهه ولم يتعرّف عليه، كأنه عاد من مدينة لا تُشبهه. تذكر غزة كما يعرفها: الأزقة الضيقة، وجدران المدارس التي امتصّت صراخ الأطفال، والسماء التي دائمًا ما كانت صافية. حمل قطعة فحم صغيرة من جيبه، كان يحتفظ بها كذكرى من بيته المحترق. أمامه، على الحجر، بدأ يرسم خطأ، ثم قوسًا، ثم نافذة. كان يتخيل بيته الذي به شرفة تطلّ على البحر. كان التحدي الأكبر في حياته هو ألا يتحوّل الألم إلى غضبٍ أعمى وأن يُبقي الفنّ حيًا في نفسه.

أما ياسين فشقّ طريقه بين أشجار الصنوبر بخطى ثابتة فيها من التوتر بقدر ما فيها من العزم. تراب الجزيرة تحت قدميه يذكره بحقول طفولته في صفاقس، حيث كان يركض خلف والده في موسم الزيتون. توقف أمام شجرة عالية، ثم جلس إلى جوارها ليفكر. كان يظن سابقًا أن الحرية تُنتزع، لكنه صار يعلم الآن أنها تُبنى. أخرج من حقيبته الصغيرة قطعة خشب كان يحملها، ومعها شفرة نقش، وشرع ينحت على الخشب.

وكيرا مشت في صمت، تنظر إلى تفاصيل الجزيرة كما لو كانت تقرأ كتابًا بلغة قديمة. مرت بأعمدة مموّجة، شبيهة بتلك التي كانت تراها في أثينا، حين كانت تجلس لساعات أمام المتحف الوطني تتأمل التماثيل. عثرت على دائرة حجرية محفورة على الأرض، وقفت في وسطها، وأخرجت من جيبها صورة قديمة. كانت الصورة لامرأة واقفة على شاطئ، وجهها مألوف. لطالما تساءلت كيرا إن كانت هذه المرأة هي جدّتها التي اختفت في ظروف غامضة خلال رحلة إلى الجنوب. تساءلت كيرا: "ماذا لو حاولت البدء من جديد؟ عندها، بدأ الضوء يتسلّل إلى أطراف الدائرة، كأنّ الأرض قد تجاوبت مع سؤالها.

بدأ الليل ينسدل على الجزيرة بهدوء. عاد الأربعة إلى نقطة الالتقاء. لم يتفقوا، ولم يتأخر أحد. جلسوا على الأرض دون ترتيب، وجوههم متجهة نحو البحر، وأكتافهم متقاربة بما يكفي لتبدأ الكلمات بالظهور.

قالت كيرا، وهي تفرك راحتها كأنها تحاول إزالة شيء عالق: "أتعلمون ما يؤلمني؟ أن معظم من في جبلي في أثينا يعيش بين فكرتين لا تلتقيان، بين مجد الماضي، وعجز الحاضر. يتحدثون عن الفلسفة والديمقراطية، لكننا بالكاد نستطيع الحديث عن أنفسنا دون خوف من السخرية أو الاتهام بالسطحية."

أوما ياسين، وقال: "في تونس، لدينا الحرية، لكننا لا نعرف ماذا نفعل بها. كأنها باب فُتح فجأة على فراغ. كل واحد يصرخ، ولا أحد يصغي. نبذل الحكومات، نملأ الشوارع، ثم نعود لبيوتنا بلا هدف واضح."

قالت ليلي، بنبرة تحمل شيئاً من التعب: "وفي بيروت، تعلمنا أن نكتم أكثر مما نقول. الكلمة هناك سلاح، لا أداة للحوار. نحلم، نعم، ولكن بصوت منخفض، حتى لا نوقظ جراحاً نائمة. نحن شعب يحب الحياة، لكننا نعيشها بحذر."

أضاف آدم، وهو يخطُّ بأصابعه على الرمل: "أما نحن في غزة، فالحياة ليست شيئاً نعيشه، بل شيئاً نتمسك به. كل ما نملكه هشّ، مؤقت، حتى الأحلام. أن نحلم في غزة هو أن تعاند الواقع يوماً بيوم. لا نريد أن نموت فقط، نريد أن نحيا كما نريد."

ساد صمت خفيف، كأن كل واحد منهم يواجه ما امتلأ به قلبه من حنين. تقدّمت كيرا قليلاً إلى مقدّمة الدائرة، وقالت وهي تمسح على ركبتيها: "حسناً، إذا كنا نعرف ما لا نريده، فلنحاول أن نرسم ما نريده. كيف نتخيّل هذه المنطقة؟"

قال ياسين وهو ينهض ويبدأ في المشي بخطوات بطيئة حول الدائرة: "أهم ما نحتاجه اليوم أن يُصغي إلينا أحد. الشباب في منطقتنا لا ينجسهم الوعي ولا الرغبة، لكن أصواتهم تُهمّش، وتُقطع قبل أن تُفهم."

أضاف آدم: "أنا أريد أن تُزرع المساحات العامة بالفن، لا بالحوازج. أحلم أن نُعلم الأطفال الرسم كما نُعلمهم الحروف. أن تكون الشوارع مرآة للأمل. ثم التفت إلى الثلاثة وسأل: "ماذا لو حملت كل مدينة في المتوسط على جدرانها قصص شبابها؟ ماذا لو أصبح الفن لغة الناس لا حكرًا على القاعات؟"

ابتسمت ليلي، وقالت وهي تستقيم في جلستها: "أحلم بأن يكون لكل شاب صوت يُسمع، لا يحتاج إلى ترخيص أو إذن. أن نعيد الكلمة إلى مكانتها، كأداة للحياة. نظرت إلى كيرا، وسألتها: "وأنت؟ ماذا ترين؟"

ردّت كيرا وهي تعبت بخصلة من شعرها: "أحلم بمجتمع لا يخبرنا من نكون، بل يسألنا من نريد أن نكون، ويمنحنا الفرصة لنجيب." وأضافت: "التعليم، الفن، المشاركة، والحوار، هي أساس المجتمعات."

اقترب ياسين من المنتصف، وقال وهو يشير إلى آثار أقدامهم على الرمل: "ما نحتاجه هو مشروع واحد، بسيط، لكنه مشترك. نحتاج شبكة من الأفعال الصغيرة والمتصلة والمتعاونة."

سألت ليلي، وكأنها تفكر بصوت مرتفع: "هل يمكن لحلم أن يُبنى بين أربع جهات مختلفة؟ وهل تكفي الإرادة وحدها؟"

ردّ آدم: "ربما لا تكفي، لكن الإرادة هي التي تجمعنا هنا. ولو لم تكن كافية، لما اجتمعنا."

نهض ياسين من مكانه، نظر إلى الثلاثة وقال بحزم: "نحتاج إلى خريطة تجمعنا، خريطة مبنية على قيم وأفعال." قالت كيرا فوراً، وهي تنهض معه: "فلنرسمها الآن بأيدينا على هذه الأرض. دعونا نترك ما معنا."

تحركت ليلي إلى منتصف الدائرة، مدت يدها إلى الورقة التي حملتها طوال الرحلة، ثم وضعتها على الرمل بثبات. جاء آدم، وضع قطعة الفحم إلى جانبها. وأخرج ياسين قطعة الخشب التي حفرها في رحلته، وأسندها إلى حجر ساكن عند الطرف. أما كيرا ففتحت الصورة، نظرت فيها لحظة، ثم وضعتها فوق الرمل دون تردد.

وقف الأربعة لحظة ينظرون إلى ما صنعوه، ثم قال ياسين بهدوء: "لنجرب أن نبدأ الآن." اقتربوا معاً من الساعة الرملية، مدّوا أيديهم، وأدروها دفعة واحدة.

هبت نسمة خفيفة من جهة البحر، وخرج من الرمال ضوء خافت يسري كالخيط، ويتجه نحو جدار حجري في الجهة المقابلة. تشكل عليه نقش جديد، لم يكن هناك قبل لحظات، كأن الجزيرة دوّنت أول سطر. ومن أعماق الجزيرة، سمعوا صوتاً خافتاً يشبه النداء. قال آدم وهو ينظر إلى الضوء الذي بدأ يخرج من الأرض: "أظن أن شيئاً ما قد بدأ بالفعل."

حين قلب الأربعة الساعة الرملية، بدأ الزمن وكأنه تنفس لأول مرة. تغيّر الضوء في الجزيرة، وامتدّ من مركز الدائرة خطّ من وهج خافت حتى وصل إلى جدار صخري، انفلق بصمت. خلفه، ممرّ ضيق ينبض بنور يشبه أول الفجر. دخلوا الممرّ دون كلمة. في الداخل، ظهرت قاعة دائرية في وسطها منصة حجرية. نظروا إلى بعضهم وأدركوا أن هناك ثمناً أخيراً، وأن واحداً فقط ينبغي أن يبقى.

لم يطل التردّد. تقدّمت كيرا بخطى ثابتة، نظرت إليهم، ثم قالت: "أنا وصلت إلى ما كنت أبحث عنه، هذه الدائرة هي مكاني." أرادوا أن يعترضوا، لكنها ابتسمت وقالت: "من يبقى، لا يتراجع. ومن يخرج، يجب أن يحمل شيئاً لا ينسى." وضعت الصورة التي كانت تحملها في منتصف المنصة، ثم جلست على الأرض بهدوء. في اللحظة نفسها، انشقّ جدار خلفهم، وتدقّق منه نور خفيف، ونسيم يحمل شيئاً من العالم الآخر. خرج الثلاثة، يلتفتون خلفهم كل لحظة. وفي أعماق القاعة، جلست كيرا، تراقب الضوء وهو ينساب.

أفاق كل منهم في زمن مختلف، لا يحملون كل الأجوبة، بل شرارة التغيير. عاد كل واحد منهم إلى مدينته باحثاً عن فسحة صغيرة يُزرع فيها حلماً. ليلي عادت إلى بيروت وفي عينيها أمل كبير. استأجرت غرفة واسعة فوق مقهى شعبي، جمعت فيها كراسي متفرقة، وطاولات وعدداً من دفاتر فارغة. دعت شباب الحي، وبدأت معهم مشروعاً بسيطاً: جلسات قراءة وكتابة تُقام مساء كل خميس. كل جلسة كانت تُفتح بسؤال، وتُغلق بفكرة، وفي المنتصف تنمو مساحات للروح، للنقاش، ولحلم يُدوّن بين السطور.

آدم عاد إلى غزة وبدأ في تنظيم لقاءات للرسم في الأزقة، دعا إليها الأطفال وأصحاب الموهبة. الفن كان وسيلته للحديث. كان يرسم نوافذ، وأبواباً، وسماً مفتوحة. في أول ورشة قال لطلابه: "إذا لم نجد ما نراه أمامنا، فلنرسمه، حتى يظهر."

ياسين عاد إلى صفاقس، وأقام دائرة حوار مفتوحة في ساحة عامة. ناقشوا قضايا التعليم، والمشاركة، والعدالة، ورسوموا على ورقة بيضاء مساراً تدريجياً لمبادرات صغيرة. ياسين كان بينهم، يسأل، يصغي، ويقول كلما تعثروا: "حين نختلف بصدق، نقترّب من المعنى."

أما كيرا، فبقيت هناك، عند حافة البحر، والدفتر مفتوح أمامها. لم تكن تكتب ما مضى، بل تبحث عن بداية جديدة لما يمكن أن يأتي. كانت تؤمن أن من يظلّ أسيراً لما فات، يعجز عن بناء ما يستحق أن يُولد. دوّنت بخطّ واضح: "لا يمكننا أن نبني المستقبل إن لم نترك مكاناً للمضيّ قُدماً."